مع ولاّ بلا

ندين توما

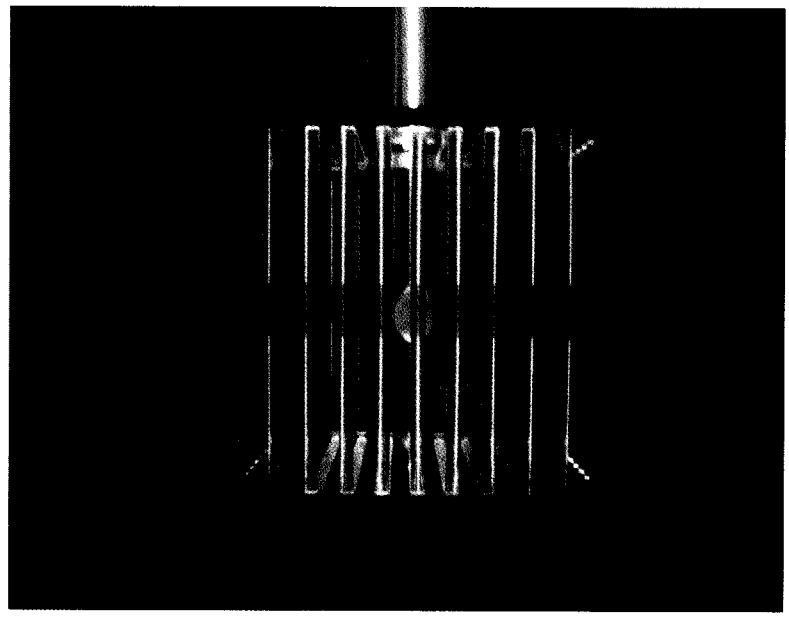

تقديم

«مع ولاّ بلا»: تجهيزٌ متعدّدُ العناصر يقارب شارعَ الحمرا في بيروت من خلال تجارب ٧ بنات هوى.[١]

يتكوّن التجهيز من العناصر التالية:

ـ صورٌ التقطتْها النساء الغانيات، وهي صور ذاتية autoportraits لا نرى فيها وجوهَهنّ.

ـ غُرفٌ بحجم غرف البارات، عُرضتْ فيها منحوتاتٌ ضوئيةٌ ميكانيكية، وبُثّتْ في داخلها قصصُ النساء التي تمّ تسجيلُها صوتيّاً.

ـ منحوتة حجرية بعنوان «حجر مذكّر حجارة مؤنّث.»

ـ قصاصات ورقية خُطّت عليها حكاياتُ هذه النساء، وعُلّقتْ مع أغراض خاصة بهنّ في علب خشبية.

ـ بُتِي فُور لها شكلُ مهْبل، متعدّدةُ النكهات والأحجام، قُدّمتْ إلى الزائرين من دون التعريف عنها!

ـ شريط ڤيديو بعنوان «بنت عيْلة،» مدّتُه ٥ دقائق، وهو مقابلة مع جرّاح يفسّر عملية «التسكير» أو «التقطيب» التي يُجريها للنساء. لا نرى الجرّاح، بل نَسمع صوتَه فقط.

ـ كتيّب يحتوي على صورة من الصور التي التقطتْها كلُّ واحدة من بنات الهوى السبع، وقد حُوّلتْ هذه الصورُ إلى طوابع تُلْحَس وتُلْزق.

مع ولاّ بلا؟

شارعُ الحمرا أحمر، أرضٌ ترابُها أحمر، الحمرا أماكن أضواؤها حمرٌ حمراء، نساءٌ شفاههنّ حمراوات، حمر الحمرا أحمر.

ومِنَ الأَحْمر ما قَتَل.

أن تكون المرأة غانيةً، وأن أكون أنا أنا في مكانٍ لا أرى فيه سوى أفواهٍ تعجّ فيها روائحُ أجساد أَكَلَها غبارُ الطرقات والأزقّة، وكلمات زوجات عطنة دُفنتْ في أيادي رجالٍ تبحث عن مهْبل لا يتساءل.

القوّادة: «يا تقبريني شو عم تعملي هون؟» يدها اليمنى حول خصري، واليسرى على خدّي الأيمن، وعيناها في فمي، وقلبي في بطنها، نَرْقص معًا رقصةَ النعم أم لا. أأنا أَبْحث عن امرأةٍ لي، عن رفيقةٍ لليلةٍ بين شراشف صينية حمراء تَلْمع بالخيوط البلاستيكية، تبغي الحريرَ، وحُلمُ كدْش التفاحة الكبيرة يَنْتظر في كوبِ ماءٍ تَنْقع

١ ـ التجهيز من إنتاج «أشكال ألوان» [الجمعية اللبنانية للفنون التشكيلية]، وقُدّم ضمن «مشروع شارع الحمرا» عام ٢٠٠٠.

فيه أسنانَها؟ أسْمع إحداهنّ تمتصّ رجلاً بسلاسة من الغرفة المجاورة. يدي على عينَي القوّادة: «شو حياتي، متضايقة؟» قبلة على خدّي قريبة جدّاً من فمي.

امرأةً أدْخل مكانًا كلُّه نساء، ولكنَّه فقط للرجال. تعايشتُ مع البارات ثلاثةَ أشهر (هل سيقرأن هذه الكلمات؟). أبْحث عن اللواتي أستطيع مسَّ قلوبهنّ وأرواحهنّ حرّة من القيود الجنسية. أبْحث عن اللواتي قلوبُهنّ حملتني إلى الفجر على ظهر كأس، فنكتةٍ، ففنجانِ قهوةٍ، فمنقوشةٍ، فشروقِ شمسٍ على الكورنيش. والعيونُ تبحث عن كتفٍ تنام عليها، عن يدٍ تَحْمل رأسَها إلى غيمة تُمْطر الهمومَ.

نساء من جنس آخر يمارسن الجنسَ من أجل المال.

والجنس أجناس، وأجناسُ الجنس عديدة.

لماذا أدّى مشروعٌ فنيٌّ عن الحمرا، عن شارع من شوارع بيروت، إلى التعاطي مع الجنس من خلال أجناس لا يُعترف بها، إلى رحلات مع سبع نساء: مريم، فاطمة، كارول، نادين، جيهان، ليلى، أم سمير؟

نساء عايشن الحمرا قبل الحرب، في الحرب، بعد الحرب، نساء يعْرفنها في الليل، يَعْرفن قصصَها الخفيةَ، يَعْملن فيها. الحمرا من خلالِ مَنْ فيها، وقد أخذنني معهنّ في حمرائهنّ.

مريم

منطقة بالمدينة ـ محلّ أزرق ـ سمك برتقالي ـ أكواريوم محلّ ـ جزيرة بحر مربّعة بقلب باطون ـ مريم وأنا واقفين بالنُصّ ـ صغيرة مريم، كتير صغيرة ـ عادةً بتوقف بالشارع وبتصير مرا ـ مرا كبيرة ـ مرا بعد ما حبَّت، بسّ الرجال الكبار بيحبّوها ـ رحْنا على الأرز ـ مريم ولا مرّة رايحة على الأرز ـ شقرا مريم ـ عيونها زرق ـ حلوة كتير.

«بيّي طَلَّعْني من المدرسة وقال لي لاقي شغل ـ لقيت شغل ـ شغل منه بدْفَعْ قسط المدرسة يلّلي ما تركتْها، والباقي بعطيه لبيّي ـ بجرِّبْ جَمِّع شويّ، يمْكن ربّنا فَتَحها بوجّي وفِتِتْ على الجامعة ـ حُلْمي صير دكتورة حيوانات ـ أوقات بحسّ حالي متل السمك يلّلي بيحْلَق بأكواريوم وبيحلم طول حياته بالبحر.»

١٦ سنة، مش صغيرة مريم؟

فاطمة

قهوة عجْرم. البحر هايج، ريحتُه مثل لونه. الدني عم بتبخبخ، والوقت آخذ وقته. وصلتْ فاطمة، ما عرفتها، مغطّاية من راسها لكعب إجريْها. قبل بليلة شفتها مكشّفة. ابتسامتها خجولة. وقفتْ، سلّمتْ، قعدنا.

بتحب «الميرندا» مع حبّات القضامة جوّاتها. اتذكّرت ونحنا صغار كيف كنّا نكبّ حبّات القضامة بالقنّينة، ونخليُّن يتشتشوا. ضحكنا وخبّرنا قصص. وبعد ساعتين دردشة، حكينا عن أمنياتها: «تريّا كريستال من عند موسيو حنبلي، محلُّه حدّ البيت. (بتتبسم، بتحطّ إيدها اليمنى قدّام تمها). ياي شو حلوين تريّاتُه. شو جاي على بالي يكون عندي واحدة بالبيت. حتى لو ما عندي إلاّ تخت وطاولة، والبيت كلّه أوضه واحدة. التريّا غير شي. بنام معها، باكل معها، بحكي معها، بتسلّيني. بعدين انتِ شايفة الخيال اللي بيعمله الكريستال على الحيطان؟ يا اللّه شو حلو. عندكن تريّا ببيتكن؟»

كارول

بتكره البارات.

«بيخنقوني. بحبّ حياة الشارع، عجقته، زماميره، ريحته. على الطريق أنا حرّة. بنقّي الرجّال اللّي بدّي إيّاه، مش بس هو بينقّيني. بسألّه، مع ولاّ بلا؟ إذا قلّي بلا، بقلّه بلاك انتَ! البقيّة بالبارات بقلّن بلا، بقولوله يلّله، قوم.»

نادين

بعد في بيوت ببيروت مدمّرة من الحرب. وعالم عايشة فيها. نادين عايشة ببيت أهلها. عمر البيت أكثر من مية سنة، حدّ الزيتونة اللّي كانت تلعب حدّا، وعين الميّ يلّلي صارت مجرور، والغسيل صور طايرة.

«بالنهار بفتح بيتي garderie لأولاد الحيّ. ببلاش. قصص، ألعاب، ورسم، دمى، منزرع الجنينة ورد، ومنقطف ليمون. وبالليل،...»

جيهان

مطبخ جيهان. مَجْلى. طاولة. أربع كراسي. برّاد صغير. فرن صغير. صحونها وكبّاياتها كلّن حمر. «جوّزوني عمري ١٥. طلّقني عمري ١٦. بلّشت إعْشق بالـ ١٧. حبلت بالـ ١٨. خلّفت بالـ ١٩. خلّفت بالبيت، مع داية. (بتبكي) مش حتى قانونية. بتعرفي، ندين، كنت نام مع رجال وأنا حبلى لأقدَر طلّع مصروفي. ما كانوا يعرفوا انّي حبلى، حتى وأنا بالشهر التاسع.

مرّة، واحد عصر لي برّي، طلّع منه حليب. بكيت من الوجع. لبطتُه. ما فهم. شحطته. علّمتْ قميصي، ما غسلتها، بعدها عندي. وقتها اكتشفت إنو صار في ببزّي حليب.» قلت لها: «تفضّلي، هيدي Kleenex.» قالت لي: «Merci.» ومخّطتْ.

«كنت ضلّني لابسة من فوق. إشْلح من تحت. أو بس قشّط كيلوتي أو بنطلوني. خلّفت صبي، وأخذته داية للتبنّي.» سألتها: «بتعرفي بيّو؟» جاوبت: «لأ.» (بتبكي).

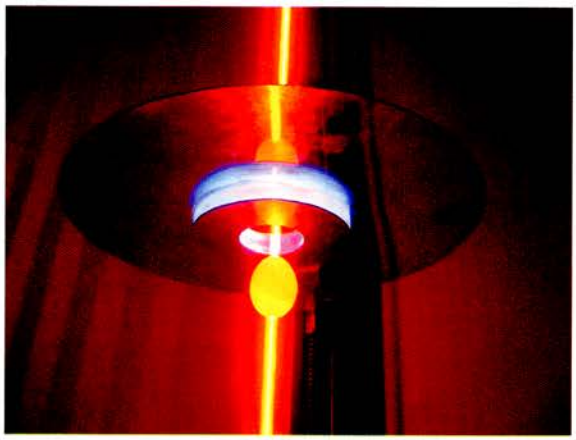

«مرّا كنت راجعة من بيت رجّال بالبسطة، على بيتي هون بالحمرا. الساعة خمسة الصبح. قلت له ينزّلني بأوّل الشارع، لآخذ شويّة هوا. بيطلع قدّامي باب أخضر، باب مدرسة، شفته ولا خمسين مرّة بالحلم. جمدت مطرحي. يمكن ربّنا عم بيقول لي إنّو إبني بهالمدرسة. صار لي خمس سنين بنظر على ها الباب. بشتري قطعة حلو من عند أبو محمد. بتفرّج عا الأولاد وهنّ طالعين. يمكن واحد منّن إبني.»

الست ليلى

بار. لون الزهر دخّان ـ العتمة نسوان ـ الشغل مش كتير منيح ـ وأنا فايته لوحدي ـ خايفة كتير ـ ولا رجّال رفيق كان يسترجي يفوت معي ـ قال شو؟ بيخافوا ينشمسوا ـ الماترونا تأهّلت فيّي وقعّدتني على كرسي ـ شربتني كاس ـ شدّتلي خدّي الشمال ـ سنانها ذهب ـ صدرها كتير كبير ـ نصحتها إنّو تغيّر لون شعرها وقبلت الست ليلى ـ إيديّها بيرجفوا وبعيونها حزْن ـ بعد ما الكاس فَتَل بالراس، شدّتني بإيدي لبرّا على المحلّ يللي واجهتُه معبّاية وجوه لعيد البربارة وقالت: «شفتي هالوجوه كلّها ـ كلهم أنا ـ أنا.» قَعدنا على الرصيف ـ راس الستّ ليلى بحضني ـ حكيت لي عن السِّيدا أو الإيْدز وقالت: «أنا عم بموت!»

إم سمير

البلكون عند تانت إم سمير، رَكّيبة الكميونات والكميونجية: كرستَيْن بلاستيك أخضر، صينية حديد Made in China مع ورد من كلّ الألوان، فنجانين قهوة مهلّلة، بطّلعهنّ بس بالمناسبات الخاصّة لأنهم غاليين «وبخاف ينكسروا يا تانت.» الطقس حلو. سمير بالجامعة. عمّو أبو سمير عم يحْلق بالحمّام. التلفزيون مدوَّر بسْ بلا صوت، ونحنا عم نحكي. «ما خلّيت نوع كميون إلاّ و[...] فيه. ما بعرف ليش الكميونجية بيحبّوني وأنا بحبّن، يمكن بحبّ المشاوير بالكميون بعد أو قبل، بحبّ ريحتهم، دايمًا معي كُرَما.»

بيضْهر عمّو أبو سمير من الحمّام بعد حلاقة الصبح لابس بيجاما مقلّمة أزرق وأبيض. بيصبّحْني. بتعرّفْ عني تانت إم سمير: «ندين توما، هي يللّي عم تعمل المشروع عنّا.»

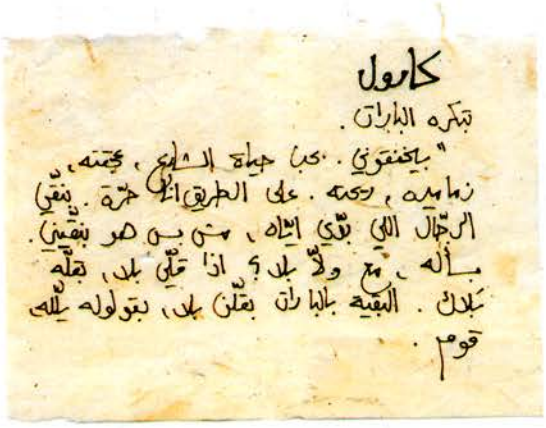

بيقول: تشرّفنا. أهلا وسهلا.

بقول: الشرف لإلي، عمّو.

بيقول: توما العَرَقْ، بيقْرَبُوكي؟

بقول: نعم، بيّي.

بيقول: أنا ما بِشْرب إلاّ توما من خمسين سنة.

بقول: المرّة الجاية بجيْبْلَكْ معي قنينتين.

بيبتسم وبيفُوت على أوضته. تانت إم سمير بتهزّ براسها وبتقول: «بيضلّو بها الأوضة عم يقْرا ويكْتب. حاصله، إيه، كنت عم خبّرك عن الكميونجية شو بيحبّوني وبيغنّجوني وبيدلّلوني وبيشتروا لي هدايا. بعدين، لَيْكي، حلو الـ sex على العالي، مجرّبْتيها شي؟» «لأ، بس بأيّ نوع كميون بتنصحيني؟» منِضْحك ومنِضْحك ومنِضْحك.

الدكتور

العمليّة بالذات بتنعمل في عنّا طريقتين. في عنّا واحدة يللّي منعملها حتى نسكّر قبل بوقت من العِرْس. بس دايمًا قبل العِرْس أو قبل ليلة

الدَّخْلة، منشوف المريضة قبل كَمْ يوم لأنه يمكن نضطرّ نعمل قطْبة تانية لنتأكّد إنو ليلة الدخلة رح يحسّ بالفتحة العجيبة وينْزل الدم والخبريّات كلّها. مِنْصير نعلّمهم شو يعملوا. يمكن نقول للبنت إنّو بدّك تمثّلي، ما تخافي، ما تفضحي حالِك. أوقات منقول حطّي دبوس أو شَفْرة صغيرة تحت المخدّة حتى تجرحي إصبعك وتحطّي نقطة نقطتين دم، حتى هو يحسّ إنّو عمل الشي يلّلي لازم يَعْمله ويكون عنتر زمانه. في واحدة خبَّرْتها إنّو لازم تمثّل ليلة العِرْس وآخ وآيْ وخبريّات. بعد أسبوعين، لمّا عم شوفها كيف صارت، سألتها: «كيف كان؟» قالت: «مِنْ كِتِرْ ما صرَّخِتْ وآخ وآيْ وخبريّات، بطّل يقوم معه!»

أوقات بتيجيه شرموطة يلّلي بتعمل هالعمليّة حتى تنام معه وتطلّع بالليلة يمكن مدخول شهر من ورا ليلة واحدة. بيدفع عليها ما بعرف ٥٠٠٠/١٠٠٠٠ دولار.

Ethics الـ business [أخلاقيّة هذه المهنة] إنّو إذا بتيجي لعندي واحدة مش virgin probably [غير عذراء على الأرجح] وجاية مع خطيبها، بيقول لي اكشفْ لي عليها شوف إذا هيدي virgin أم لا، ما فيّي قول إنّو هي مش virgin. في كتير منهن بدّن السِّتْرا، يمكن سَبَب بَقْتلها للمخلوقة. بكَذِّبْ أحسن ما إقْتلها. بنت عيْلة كانت، أكيد بدّو إياها عذراء وما بعرف شو.

أوقات بتيجيه واحدة شرموطة حلوة ومرتّبة وكذا، وبتحسّ إذا ما كانت عذراء ما فيها تطلّع مصاري كتير لأنو في طلب على واحدة عذراء، يمكن يجي واحد طلبُه ينام مع واحدة عذراء. بتيجي هالشرموطة يلّلي بتعمل هالعمليّة حتى تنام ليلة معه لهَيْدا.

في طَلَب كتير على الـ virgins. بيدفع عليها ما بعرف ٥٠٠٠/١٠٠٠٠ دولار.

الـ hymenoplasty أو التسكير عمليّة بتنعمل مرّة أو maximum مرّتين، لأنو حُكْمًا لمّا نَعْمل العملية مِنْشيل مثل رقعة جلد من قلب المهبل vagina ومِنبْرِمْها لورا حتى نسكّر فيها مَدْخل المرا. ما في عندي كتير كميّة فايضة حتى إقدر ضلّني عم أَعْمل هالعمليّة مرّة ورا مرّة ورا مرّة.

لمّا نقول purse string يعني هيدا الـ hymen أطرافُه من هون منشدّهم على بعض لنسكّروا، يعني مثل كيس اللبنة يلّلي بتشدّيه ليسكّر. الخيط يلّلي منستعمله خيط كتير رقيق كتير رفيع حتى ما يبيّن. ولمّا بدو يفوت من هون بيخزق الخيط الرفيع، وبينزل الدم، وبيحسّ حاله عِمِل الشي يلّلي لازم يعمله.

بيروت

ندين توما

أُسقطتُ على رأسي في قبّ الياس السبعينيات، وتهجّرتُ إلى ضواحي بيروت الشرقية في الثمانينيات، وأخذتني رياحُ العلم إلى بلاد الغُربة في القارّة الأميركية الشمالية حيث نُوِّجتُ سنين التعب بشهادة في علوم النساء والفنون الجميلة. ومنذ عودتي إلى بلادي الأم وأنا في معترك الفنون والكتابة والمسرح.